الجبانة

قصة بقلم ثروت سرور

قام صابر من النوم على أصوات كثيرة تملأ الدار !!

وعلى غير العادة وجد ان جدته لم تكن نائمة الى جواره فأحس ان شيئا قد حدث !

شيئا يستطيع ان يعرفه لو اراد . ولكنه تهرب ولم يشأ ان يعرف !

وعندما خرج من « المقعد » ادرك ان الشمس قد ارتفعت في الافق فشرع يهبط الدرج وهو يشعر بفيض غامر من السعادة لان احدا لم يوقظه كالعادة في الصباح الباكر ليذهب الى غيظ عمه عبد الهادي.

ثم اتجه الى المندره وقد تبين ان الاصوات آتية من هناك .

ولما اقترب رأى امام العتبة بجانب صينية القلل مجموعة كبيرة من الجزم والشباشب ، وفي المندره نفسها رأى نساء يلبسن الملابس السوداء عرف بعضهن على الفور وبعضهن الآخر لم يعرفهن .

عرف بينهن محضيه امرأة الباز ابو سيد احمد التي ماتت ابنتهـــا من الحصبه في الاسبوع الماضي وعرف ايضا مسعده بنت الشيخ غريب وفهيمه الدايه ، وعمته نواره ، وجدته ، وامه كن جميعا وغيرهن يجلســن على ارض المندره بعد ان فرشت بالحصر ويتكلمن عن اشياء كثيرة لـم يفهم لها معنى !

غير انه بدأ يفهم حين سمع محضيه تقول لامه :

ـ عوضنا على الله

فترد امرأه لا يعرفها

ـ ايوه ياختي عوضه قريب .

وسمع فهيمه الدايه تحدث عمته نواره عن الحصبة التي انتشرت في القرية وقضت على الكثير من اطفالها ، ونواره تعجب لهذا المرض الذي يقتل اطفالهن فقط دون ان يأتي على طفل واحد من اطفال البهوات !

واشتركت في الحديث امرأة اخرى فأخبرتهما ان نعيمه بنت مبروكه اصيبت ايضا بالحصبة واثار هذا الخبر عمته نواره اكثر فاندفعت تقول :

ـ ياختي امال فين الحكومة ؟ بس شاطرين يلهفوا منا القمح ؟

والتفت صابر الى مسعده بنت الشيخ غريب وهي تقول لامه

ـ كفاية عايط بأه يا أمنه . اخص عليك . صابر أهه كلميه .

كانت امه تبكي بصوت مسموع وجسمها يهتز ، وفي هذا الوقت ايضاكانت محضيه تبكي، ولكن ليس بالدرجة التي كانت تبكي بها امه .

على ان الحزن كان باديا على الجميع وخاصة على جدته . فقد رآها متجهمة مقطبة الجبين حتى لقد أخافته حين جمع بين سحنتها وبين شخيرها المزعج المخيف اثناء الليل وثبت لديه ان فكرة النوم معها اصبحت فكرة كئيبة !

وقامت فهيمه الدايه فأمسكته من يده وادخلته المندره وهي تربت على كتفه وتقول :

ـ تعالى يا ضنايه

واستطاع ان يرى بوضوح شيئا مغطى بعباءة أبيه السوداء .

واذن فقد مات سيد الصغير ولن يراه صابر مرة اخرى !!

ولم يكن صابر يعرف انه يحب أخاه دون ان يدري .

فقد خيل اليه دائما انه يمقته !!

كان يمقته كلما رأى اباه يدلله ويلعب معه لعبة الجمل !

وكان يبغضه كلما رآه ذاهبا مع ابيه الى دكان الشيخ غريب ليشتري له الحلاوة الطحينية او الكرمله !

وكان يكرهه كلما اقسم ابوه انه سيعلمه في المدارس ولو باع الهدوم من اجل ذلك وكان اخشى ما يخشاه صابر ان يكبر سيد ويذهب حقيقة الى المدرسة فيلبس البدل كالافندية ولا يصبح فلاحا مثله يسرح الفيظ ليسوق البقره التي تدير الساقية او ليركب الملاس .

ولكنه يعرف الان بأنه كان واهما متخيلا ، ويعرف انه انه كان يحـب سيدا دون ان يدرى ويتمنى لو انه لم يمت ليتعلم ويصبح مأمورا وحتى يعمل له جمل هو الاخر ويشتري له بكل مصروفه حلاوة وكرمله يوم العيد.

فالعيد قد اقترب ولم يعد باقيا عليه سوى ثلاثة أشهر .

هكذا قالت له امه عندما سألها قبل ان يصاب سيد بالحصبة .

ولكن يا خساره . عندما يجيء العيد لن يكون سيد هنا ولا بد انه لم يكن يعرف شيئا عن اقترابه والا لما سمح لنفسه بأن يموت !!

وليته رآه وهو يفعل ذلك . اذن لمنعه وحدثه عن كل شيء.

عن اللحمة الكثيرة والملابس الجديدة . والمصروف الذي سيجتمع لهما من أبيهما وامهما ومن الاقارب ايضا ، والذي سيضعانه في الكيسين بعد ان تصنعهما ستيته الخياطة من القماش الفائض .

ولكنه لم يضبط سيدا وهو يموت لانه ينام دائما مع امه وابيه فـي حين ينام هو مع جدته في « المقعد »

ولاحظ صابر انكل النساء تقريبا ينظرن اليه فأخجله ذلك ، وكـاد يهرب من المندره لولا نشيج عال ند عن امه سمره في مكانه .

فجعل ينظر اليها في اشفاق وهي تمسح دموعها بذيل الثوب الـذي ترتديه تحت ثوبها الاسود ومسعده تقول لها:

ـ اخص عليك يا أمنه صلي عالنبي بأه امال

لقد رأى امه كثيرا وهي تبكي وذلك كلما كان يضربها ابوه عبد العاطي ولكنها الآن تبكي بطريقة اخرى غريبة لم يعهدها من قبل حتى صـارت عيناها حمراوين كالدم القاني .

وود لو يبكي مثلها ولكنه لم يستطع فأحس بالضيق لذلك وبدأ يتخلص من فهيمه الدايه وكانت لا تزال ممسكه به ثم خرج من المندره وهو يخشى ان يظل الحزن في الدار الى ان يجيء العيد فلا يشتري له ابوه الجلابية الجديدة ولا تعمل امه الكعك !

وامام الباب الخارجي وجد اباه عبد العاطي.

كان جالسا على المصطبة وفي يده عود من حطب القطن يضرب به الارض.

وكان الى جواره عمه عبد الهادي وعبد العال البنا والشيخ جاد وبدير ابن عمته نواره . وقال الشيخ جاد لابيه وقد رأى صابر وامسك به :

ـ البركة في صابر . ربنا يطول عمره ويطرح فيه البركة .

ولاول مرة في حياته رأى اباه وهو يبكي وتسقط الدموع حقيقة من عينيه

فبكى صابر ايضا بالرغم من اللذة التي احسها لكلام الشيخ جاد !

وعاد هذا الاخير يقول في عتاب :

ـ عيب يا عبد العاطي . بلاش الحاجات دي قدام الولد

على ان عتاب الشيخ جاد نفسه أثار بكاء صابر أشد وأكثر بينما سكت ابوه وأخرج من جيبه المنديل المحلاوي الكبير فمسح دموعه وأنفه وعاد ينظر الى الارض ويضرب عليها بالعود الحطب . ثم جعل يقطع منه قطعا بأسنانه ويرمي بها بلامبالاة .

واستطاع الشيخ جاد بعد جهد ان يثني صابر عن البكاء فراح ينظر الى الطريق وهو يمسح دموعه بأكمامه .

كانت غنم ابو خليفه قد خرجت لتوها من الدار وملات الحارةبالغبار وكان يسير خلفها الكلب الاسود وعبده ابو خليفه يسوقها بعصاه الخيزران الرفيعة

وكان رمضان ابو الخير يسحب الجاموسية في يده ويركب الحمار متجها الى الحقل بينما كانت امرأة لا يعرفها صابر تحمل على رأسها عقدة كبيرة من الحطب ويمشي وراءها طفل صغير .

ومر عجوز شحاذ يتوكأ على قطعة من الجريد ويعلق جوالا منتفخا في كتفه الذي انحسرت أسماله عن معظمه فبدا عاريا .

وجعل يقف امام كل دار ويستجدي ، فمرة يمنح رغيفا او كسرة من الخبز تاخذ طريقها الى الجوال لتزيد من انتفاخه ، ومرات اخرى يصرف باللين او القسوة

وجاء طفل عابث فجذب الجوال من كتفه بقوة وارخاه ثم فر هاربا.

ولم يكد يقطع بضعة امتار حتى اصطدم بطفلة كانت تجمع روثالبهائم فاوقعها بالمقطف على الارض وتناثر ما كان فيه ووقع هو ايضا عليها

ولكنه نهض مسرعا وعاود الهروب وقد تلوثت ثيابه في اعلى الصدر من يديها

بينما قامت الطفلة مغيظة حانقة لتجمع الروث مرة اخرى وهيتسبه وتلعنه وتطلب الموت لمن خلفوه .

والتفت صابر الى الشيخ جاد وهو يسعل بشدة ويده تدلف الىجيبه وتخرج بعلبة الدخان التي علاها الصدأ وطمس اجزاء من الديكالمنقوش عليها وأمسك بالعلبة في يده حتى زالت نوبة السعال وبصق على الارض مرات ثم فضها وأخذ بين سبابته وابهامه بعضا من الدخان وضعه في ورقة من دفتر البفرة وشرع يلف السيجارة .

وقبل ان يلصقها بلعابه مال برأسه على بدير وطلب منه ان يخلي المندره

وانتقلت النساء الى القاعة المجاورة فدخل الشيخ جاد على الاثر وطلب الماء الساخن وطبق العشاء وطشت الغسيل .

وفهم صابر انهم سيغسلون اخاه فدخل المندرة برغبة قوية في ان يراه للمرةالاخيرة ليملأ عينيه من صورته حتى لا ينساها مهما غابت .

ولكن الشيخ جاد لامر لا يفهمه صابر ، حرمه من رغبته فطلب الى بدير ان يخرجه ويغلق الباب .

وعانقت سمعه اصوات كثيرة مختلفة آتية من القاعة ومن غير القاعة .

صياح وهمس ، وبكاء عال ونشيج مكتوم ، ونباح كلاب قريبة من الدار واخرى بعيدة عنها ،وصياح ديكة ونهيق حمير ، وامرأة فيالحارة تنادي على محمد واخرى تنادي على الفجل ، وأصوات اطفال يلعبون استغمايه والعرب جايه ونوبة سعال حادة تنتاب الشيخ جاد .

وأحس انه لا يكره في القرية كلها غير هذا الشيخ جاد الذي وأد رغبته في يمهدها . ولكنه ما لبث ان تذكر اولاد البهوات .

وتذكر أنه يمقتهم اكثر من الشيخ جاد نفسه ويتمنى لهم الموتجميعا فمهما نسي لن ينسى ما حدث له في جرن الباشا !

كان قد اعتاد انيذهب الى الجرن مع بعض اطفال القرية ليشاهد احفاد الباشا وهم يلعبون الكرة .

ومرت ايام كثيرة تمنى خلالها فقط لو يمسك الكرة ويلمسها !

كان يرى في مجرد لمسها سعادة لا يجدها ناسك وهو يتحسسالاماكن المقدسة !

وكان ينظر اليها من بعيد وكأنه ينظر الى شيء في السماء . شيء كالقمر او الشمس !

وبدت الامنية لنظره في بادىء الامر اكثر بعدا من النجوم .

على ان الخيال كان أسخى وأكرم من الواقع اذ كثيرا ما جعله يتصور انه يمسكها ويعانقها ويقذف بها !!

وحدث ذات ليلة أن تحققت الامنية بصورة رائعة !

فقد عاد صابر متعبا من الحقل ورأى اثنا ءالنوم انه يلعب معهمويلبس مثلهم تماما ملابس الكرة .

وفي الصباح عندما ايقظته جدته ليسرح الغيط آلمه وحز في قلبه أنه كان يحلم .

وأخيرا جدا واتته الفرصة ليمسكها حقيقة ويقذفها بيديه !

فقد أمره خالد بن صالح بك أن يأتي لهم بالكرة كلما خرجت عن الخطوط البيضاء التي صنعوها من الجير ليحددوا بها الملعب .

ومن يومها اعتاد ان يهرب من غيط عمه عبد الهادي ويتردد على الجرن بالرغم من الضرب الذي كان يصيبه من جراء ذلك .

وذات يوم كان هناك عندما خرجت الكرة عن الخط الابيض وكان يتمنى دائما ان تخرج فامسكها بيديه ، وفي هذه المرة سمح لنفسه ان يقذفها بقدمه وقد راودته هذه الفكرة كثيرا من قبل وألحت عليه وألهبتخياله !

ولكنها بدل ان تتجه اليهم لتدخل الملعب انحرفت برغمه الى الترعة الصغيرة التي توجد على رأس الجرن وسقطت فيها !!

وفي سرعة لا يفوقها الا الخوف الذي احس به حينئذ ، انطلق صابر يعدو وراءها

وقبل ان يعمل على اخراجها من الترعة ادركه عادل بن احمد بك فجعل يصفعه على وجهه ويركله بقدمه ثم قذف به الى الترعة فسقط تماما كما سقطت الكرة !!

اجل انه يذكر هذا كله ويذكر انه خرج من الترعة بعد ذلك والماء ينهمر من ثيابه ، ورجع الى الدار دون ان يفكر بعدها في الذهاب الى الجرن كما لم يعد يهرب من الغيط الا لاما وكلما اراد ان يلعب مع اطفال القرية بالكره الشراب!

وخرج بدير من المندره واغلق وراءه الباب ثم طلب فأسا .

ولم يمض الوقت الكافي ليأتي بها صابر من حظيرة عمه عبد الهادي ومع ذلك احس بدير انه أبطأ فراح يأخذها بنفسه . ولكنه قابله في الحاره واخذها منه وبعد ان وضعها على كتفه طفق يسير الى الجبانة بينما عاد صابر يمشي في طريقه الى الدار غير انه لم يكد يخطو بضع خطوات حتى خطر له ان يذهب مع بدير ليرى القبر من الداخل عساه ان يتأكد بنفسه من وجود الملائكة التي تحاسب الميت بعد دفنه !!

فقفل يعدو راجعا حتى لحقه عند دكان عبده ابو قنديل . وابدى رغبته في ان يحمل عنه الفأس ولكن بدير رفض وهو يلفت نظره الى ثقلها .

وفي الطريق الى الجبانه كان كل شيء مألوفا .

دور كثيرة بنيت من الطين لا تختلف عن بعضها في شيء ، تربض كالقبور جنبا الى جنب ، ونساء يغسلن ملابس او نحاسا او قمحا ونساء يجلبن ماء من طلمبة هنا او هناك ومصاطب يجلس عليها رجال وصبيان وينام اخرون وكلب او خروف ينام الى جوار هذا او ذاك وطفل يتبرز في صدر الحاره غير بعيد من اطفال يلعبون في الطين والتراب !

وثياب قذرة ممزقة ، وايد ملوثة ، ووجوه يتراكم عليها الذباب ويتغذى من شيء في العيون ! وامرأة تجلس على الارض امام دارها وتخرج ثديا من الجلباب فيحتضنه طفلها ولا يني يمتصه !

وفراخ وبط واوز وعنز تدرج في الحارة .

وكلاب كثيرة بعضها يتشاجر والبعض يبحث في الارض عبثا عن شيء يؤكل !

وحمير تحمل سباخا الى الحقل وحمير في طريقها لتحمل .

واعواد من حطب القطن مبعثرة على الارض وبقايا روث واتربه وطين واحجار وكوم هائل من السباخ امام دار .

وامرأة تضع مشنة جميز على رأسها وتنادي فتؤكد انه تين وعجميه!!

ورجال في الجامع يستعدون لصلاة الظهر ورجال في الطريق اليه!

وقصور الباشا وابنائه البهوات !!

وتذكر صابر كل ما تحدثت به القرية عن النعيم داخل القصور

فقد قالوا انهم يأكلون هناك بملاعق ذهب في اطباق من ذهب !!

وانهم يذبحون الخروف ويأكلونه في مره !!

وانهم يمشون وينامون على حرير في حرير !!

وتذكر « كناسة » الباشا التي طالما حدثته عن قصة الحياة الخرافية داخل القصور !!

فقد كان ولا يزال يبكر اليها كل صباح خشية ان يسبقه اليها اطفال القرية !!

وربما بكر احيانا اكثر من اللازم فيضطر ان ينتظرها في البرد مع الكلاب ريثما يخرج بها الخدم !

فاذا خرجت بعد طول انتظار نشبت معركة عنيفة بينه وبين الاطفال من جانب وبين الكلاب والقطط من جانب آخر !!

وبعد ان يسيطر على الموقف ويصبح سيده ينقب وينبش فيها بيديه فيعثر على بكر فاض ، واقلام تكتب احمر ، ولعب مكسره ، وبلح احمر في غير اوان البلح ، ونوى مانجو لا زالت عالقة به ثمالة ملوثة بالاثر به فيمتصها ويكاد لحلاوه مذاقها ان يأكل نواه !!

كما يعثر على بعض حبوب معطبة من فواكه لا يعرف لها اسما ولكنه يجد في طعمها لذة برغم ما دب فيها من عطب فيأكلها وهو يجهد خياله في تصور مذاقها بدون العطب ! وتذكر انه تمنى كثيرا من قبل لو يدخل القصر مرة ليرى كيف يبدو من الداخل وماذا يحوي من اسباب الترف والنعيم .

ولكنه الآن يمر من امامه دون ان يحس بأدنى رغبة في رؤيته من الداخل او الخارج بل يتمنى لو تهدم على اصحابه وزال بهم من القرية حتى يمحى كل اثر لعادل بك الذي ضربه والقاه في الترعة !!

واتاهما صوت الشيخ عطيه يؤذن للصلاة

كانا قد خلفا من ورائهما القرية والقصور وجعلا يسيران في الطريق الزراعي المؤدي الى الجبانه ، وصابر يمشي بقدميه الحافيتين على الطريق الذي تكسوه طبقة كثيفة من التراب الساخن فيحس بما يحس به انسان يمشي على لهب !!

حتى لقد اضطر في سيره ان يحرك قدميه ويململها لكي لا يمكن التراب برهه منهما ساكنتين !!

ولكن هذه الحيله لم تفلح في الحد من وطأة النار التي يصطلي فيها.

ورغم هذا افضل ان يعاني في صمت على ان يشكو مخافة ان يشير عليه بدير بالعودة او يأمره .

وفقط كان اذا قابلته شجرة من الاشجار المبعثرة على جانبي الطريق تخلف لحظة ليبرد قدميه في ظلها وبعدها يعدو ليلحق بديرا !!

واقتربت جبانة الباشا !!

بناء ضخم له ما للقصور من عظمة ورهبة !

ولما اصبحا في محاذاتها لاحظا ان بابها الكبير موصد كالعاده فتركاها ومضيا الى جبانة القرية !!..

وفجأة قال بدير وهو يهز رأسه في غيظ واسف بعد ان صمت طوال الطريق :

ـ عجايب صحيح . جبانتنا يا خويا اتملت وجبناتهم لا اتفتحت ولا دخلها حد !!

القاهرة

ثروت سرور

صدر حديثا :

الحيّ اللاتيني

رواية

بقلم الدكتور

سهيل ادريس

الطبعة الثالثة

دار الآداب - بيروت